

تعريف بالقرآن

للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

ترجمة الأستاذ الكبير أحمد محمد بريرى

— ٣ —

فن ناحية هذه « المباحث » ليست فى مهدها فى عالم المسلمين ، يشهد بذلك كثير من المؤلفات العربية التى يرجع إليها المؤلف نفسه فى هذا الصدد ، لا المؤلفات الخاصة فى الإملاء والصوتيات والتلاوات القرآنية فحسب ، بل أيضا التفسيرات وكتب فقه اللغة ومصطلح الحديث والفقه ، وكلها تزخر بهذا البحث .

ومن ناحية أخرى : هذه التلاوات الخاصة فى هذا الحيز الواسع بعيداً عن أن يلحقها ضغط من جانب « السلفية » ، « الأرثوذكسية » ، بل تمتاز بطابع قدسى ، وهى ما تزال تدرس فى المذاهب السنية ، لا بوصفها قرآنا ، بل بوصفها أحاديث آحاد .

وعلى الرغم من هذه الشواهد فإن صورة التاريخ الكهنوتى المسيحى التى لا شك أن المبشر الانجليزى أكثر ألفة لها يبدو أنها ألحت على الكاتب إلى حد أنها انتقلت معه تقريباً بكمالها ، لجرى بها قلمه فى المحيط الإسلامى ، فالمؤلف يحاول فى الواقع أن يقيم بالقياس إلى النص القرآنى شيئاً من التطور يشبه فى كثير من مظاهره تطور نص الإنجيل ، فيبدأ بتفرقة فى نصوص القرآن تثير الدهشة بين « قطع تعبدية » كتبت على الراجح عند نزول الوحى ، وبين قطع أخرى ليست كذلك (ص ٦) ويؤكد ـ مناقضاً نفسه على كل حال ـ أن التنزيل عند وفاة النبي لم يكن جمع (قارن بين ص ٥ وص ٧) ثم ينكر ـ لاعباً بالألفاظ ـ الصفة الرسمية لجمع أبى بكر (قارن بين ص ٦ ، ص ٢١٢) ويرجح أخيراً أنه حين قرار عثمان كانت هناك خلافات كثيرة بين مجموعات العواصم الرئيسية المختلفة (ص ٨) ويكتب : أن

مصلى الكوفة حينذاك كانوا منقسمين إلى طائفتين ، قبل بعضهم النص الجديد الذى أرسله عثمان ، ولكن الأغلبية أيدت نص ابن مسعود (ص ٨ ، ٩) وكذلك يقدم لنا نص عثمان لا على أنه واحد من جملة نصوص متعارضة فحسب (ص ٩ - ٢٣) بل على أنه نص جديد يعارض المجموعات القديمة والتلاوة على عهد الرسول ، وإنه إنما فرض نفسه فى النهاية لا لامتيازات ذاتية داخلية ، بل بفضل نفوذ مدينة الرسول (ص ٨) .

هذا النهج فى عرض تاريخ النص القرآنى يحتوى ضلالات خطيرة ، وتتطلب توضيحا شافيا يضع الأمور فى نصابها .

فلنذكر أولا : بأن مجموع عثمانى ليس له صفة القدم فحسب ، بل إن الوحدة بينه وبين مجموع أبى بكر تامة [١] ، وأن الدراسات المسيحية الحديثة لتقر تلك النتيجة ، يقرر « شوالى » ما يلى : « لقد أقمنا فيما سبق الدليل على أن نسختى زيد متفقتان ، وأن مصحف عثمان ليس إلا نسخة من مجموع حفصة ، ولا ننسى من ناحية أخرى أن جميع مواد هذا الأخير لا يرجع تاريخها إلى الخليفة الأول فحسب ، بل يرجع بتمام النص إلى الرسول ، والحق أن كل التلاوات مكتوبة أو شفوية سواء فى أنها تنتمى إلى مصدر واحد ، بل يمكن أن تكون بعض التلاوات المختلفة عن النص العثمانى أسبق تاريخا ، مما هو ثابت فى مجموع عثمان ، على أن هذا وذاك يجب أن يتصل بعهد ما من حياة الرسول ، ولكن يجب أن يلاحظ أن تلك الأسبقية النسبية لا يمكن أن تكون معيار ترجيح ، فإن النص الأتم صحة ليس ضرورة الأكثر قدما ، بل عساه أن يكون الذى نال لمسة اليد الأخيرة ، وأن تعبير « الحرف الأول » فى مصطلح الصحابة مطبقا على التلاوة خارج النص ، لا تعنى التلاوة على عهد الرسول عامة ، بل تعنى التلاوة الأقدم فى ذلك العهد . . يعنى : الملغاة ـ المنسوخة ـ وكذلك ينهار الأساس الذى أرادوا أن يقيموا عليه قيمة هذا النوع من التلاوات ، ولنغض النظر عن تلك الاختلافات التاريخية ، فإن أهم شرط

---

(١) البخارى : كتاب فضائل القرآن ص ٣ ، وداود ص ٢٣ .

جوهرى لتأسيس صحة نص إنما هو التأكد من أنه فى صورته المكتوبة قد حققه ووافق عليه بما فيه الكفاية المؤلف أو ممثله ، والذى حدث على وجه الدقة هو أن بعض التلاوات التى لم تتوافر لها جملة هذه الشروط أيام الجمع ، فلم تقبل فى المجموع الرسمى أو المصحف العام .

أكثر من هذا زيادة على انهيار الأساس الذى لا علاج له فيما يتعلق بتلك التلاوات أضيف صنف جديد فى نقلها اللاحق ، فإن ناشر كتاب المصاحف نفسه يصرح بأنه أدهشه هذا اللبس الذى يحيط بالتلاوات غير العثمانية من ثلاث وجهات :

(١) من حيث قدمها فقد يشتبه لنا أحياناً أن ثم وضعاً لاحقاً أريد به الاتصال بذى سلطان قديم كيما يستفاد من نفوذ اسمه (صـ ١٥) .

(٢) من حيث تحديد مصدرها فثم أحوال يبدو التخليط فى نسبتها إلى مصادرها (المرجع نفسه) .

(٣) من حيث تعيين صورتها ، فليست الصعوبة فى أن ثم تلاوات متعددة منسوبة إلى قارىء واحد ، ولا يدرى أيتها الصحيحة [1] فحسب ، بل ثم أحوال تبدو التلاوة فيها مستحيلة لغة (صـ ١٦) ،

فوق هذا يعترف مستشرقنا أن التلاوات غير العثمانية قلما تنسب إلى أصحابها بوصف كونها مكتوبة فى مصاحفهم ، بل فى الغالب بوصف كونها سمعت منهم تلاوة شفهية (ص ٢٤) ولكن مع هذا حينما يجمعها لحريته كاملة فى أن يضمها جميعا تحت عنوان « مجموع » بل أنه لا يكتفى بجمعها ـ ليكبر من حجمها ويزيد من قيمتها التعارضية ـ مضيفا إليها التلاوات التى لا تختلف عن المجموعة الرسمية ، ولكنه يضيف أيضا لحساب هذا المؤلف أو ذاك تلاوات تنتمى لا إلى القارىء نفسه بل إلى أحد تلاميذه فقط .

ولكن بعد كل هذا مم تتألف تلك التلاوات غير الرسمية وما قيمتها ؟ .

نلاحظ أولا أنها لا تنصب على كل السور ، ولا على أية سورة بتمامها ، فإذا نظرنا فى طبيعتها أمكن أن نميز منها أنواعا مختلفة .

---

(١) نقلا المجموع المزعوم لابن مسعود ، ففى هذا ابن إسحاق .

فى طائفة أولى ، يتضح الاهتمام : إما بشرح كلمة مفهومة ضمنا نحو « وإسماعيل يقولان ٢ - ١٢٧ » ، « فنادته الملائكة يا زكريا ٣ - ٣٩ » ، « إلى قومه فقال ياقوم ١١ ، ٢٥ » وإما بتكرار كلمة سبق ذكرها نحو : « عن قتال ، وعلى الصلاة ، وآمن المؤمنون ٢ - ١٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٥ » وإما لبسط المعنى نفسه بإضافة عبارة ثبيتة نحو : فضلا من ربكم فى مواسم الحج فابتغوا حينئذ (٢ ، ١٩٨) والعصر ونوائب الدهر . . بى خسر وإنه لفيه إلى آخر العمر (١٠٣ - ١ ، ٢) ويلاحظ بوضوح فى كل هـذا أنه عمل محش يبعد عن صفاء الأسلوب القرآنى مرهقا النص بإسهاب أحيانا لا يكاد يحتمل .

وفى طائفـة ثانية تتلخص التلاوة فى أن يستبدل بكلمة كلة أخرى ، إما مرادفة نحو : يكمل : يتم ، ويوفه : يؤده ، دره : نملة ، الصوف : العهن .

وإما كلة أخرى ذات معنى مختلف ، إلا أن الكلمتين تتكاملان وكل منهما تتضمن الأخرى على التبادل مثلا : الحج والعمرة للبيت ، بدل : الحج والعمرة لله (٢ - ١٩٦) .

وفى طائفة ثالثة تتلخص المسألة فى مجرد القلب ، نحو : فى ظلل من الغمام والملائكة : والملائكة فى ظلل من الغمام (٢ - ٢١٠) .

بما تعملون بصير : بصير بما تعملون (٣ - ١٥٦) .

على قلب كل : على كل قلب (٤٠ - ٣٥) .

وفى النادر يعمد إلى إهمال كلمة : نحو : بما آمنتم ، بمثل ما آمنتم (٢ - ١٣٧) . إلا الساعة أن تأتيهم : إلا الساعة تأتيهم (٤٧ - ١٨) .

وفيما يتعلق بالطوائف الثلاث الأخيرة ، ودون تعرض القيمة الأدبية المتقابلة فى مختلف القراءات ، يمكن القول مبدئيا أنه ممكن أن تكون إزاء تلاوات حقيقية مختلفة كلها مقبول على شرط إثبات أصلها التاريخى ، على أنك مع هذا مغرى أن تفترض فى بعض عبارات القراءات غير الرسمية شيئا من التوفيق الطارىء على النص فيما بعد ، فى حين أن النص الرسمى يمتاز بأنه يمضى قدما ، بغض النظر عن وجهات

النظر الخاصة، سواء أكانت من النوع الديني نحو : بمثل ما آمنتم، يأتيهم الله في ظلل، أم من النوع السياسي، نحو : من المهاجرين والأنصار والذين (٩ - ١٠٠) وليس والأنصار الذين كما كان يعتقد عمر، أم من النوع اللغوي، نحو : أن هذان لساحران، أم من أي نوع آخر، وإنما لنرى أن هم أصحاب الرسول الوحيد حين أثبتوا نص القرآن إنما كان انطباق كل قطعة انطباقا أمينا حرفيا على النص الذي أملاه الرسول وتلى عليه وأقره إقرارا نهائيا، فهذه الموضوعية التامة المطلقة باقية أبد الدهر شرفا لهم

ومع هذا فالثرثرة ما تنفك تبدى وتعيد في مسألة ابن مسعود وغيره من أصحاب المجموعات كأن شيئا كهذا يمكن أن ينال من إجماع الصحابة على المصحف العثماني، والحقيقة أن أحدا منهم لم ينازع في صحة المصحف الرسمي، إلا أن ثم قراءات أخر يؤكد أصحابها أن الرسول أجازها دون أن يقدموا دليلا موضوعيا على تلك الإجازة وهم قد أصروا على الاحتفاظ بها لا كمساوية للمصحف الرسمي المجمع عليه أو قائمة مقامه ولكن لتبقى معه . . فكذلك نرى أبا موسى مثلا يوصي ذويه أن يحتفظوا بمجموعه ويكملوه من المصحف العثماني[1]، وحين جاء الغاضبون إلى ابن مسعود فإنه لم يزد على أن يقول لهم أن كل التلاوات الموصى بها المجازة كلها صحيحة[2]، وهذا الغضب - إذا كان ثم غضب - له سبب مزدوج : فهذا الصحابي الجليل الذي هو من السابقين الأولين يحرم أن يكون عضوا في لجنة الجمع، ثم يلزم فيما بعد أن يسلم مجموعه ليعدم، ولكن رد الفعل التلقائي لم يقاوم التفكير طويلا، فابن مسعود كان غائبا يؤدي عمله الرسمي في العراق منذ أمد بعيد قبل الجمع، ولم يكن معقولا أن عملا عاجلا كهذا يجب أن يقف انتظار حضوره الذي لم يكن له ميعاد، في حين أن كثيرا غيره من الصحابة يملكون كما يملك وأكثر مما يملك مجموعاته دقيقة أجازها الرسول، أما نسخته التي ضمنها بعض الدروس الخاصة أو التلاوات التي لم يقم عليها إجماع، فلقد كان حظها كحظ غيرها من مثيلاتها[3] بمعنى أن تفقد الطابع الإلزامي المحقق وتبقى موضع ثقة محدودة تحت المسئولية الشخصية، وإذا كان إعدام

(١) داود : ص ٣٥ . (٢) المرجع نفسه : ص ١٨ .

(٣) ينظر فيما مضى مسألة عمر ص ٢١، ومسألة حفصة ص ٢٢ هامش ١ .

تلك النسخ الخاصة له مظهر عنيف حينذاك إذ لم يكن شاب القرآن أية شائبة ، فهو يكشف إلى أى حد كان الخليفة صائب النظر بعيده [١] ، فإن المسلمين مدينون لهذا العمل الإلهامى بوحدة كتابهم المقدس وثباته . . فليضف إليه فيما بعد ما يراد من القواعد والعلامات الخارجية (التى اخترعها أبو السعود الدولى وأتباعه نصر ابن عاصم ويحيى بن يعمر والحسن البصرى والخليل بن أحمد) فإن الجسم مع هذا باق أبدا ثابت يتحدى حدثان الزمن .

إن بقاء بعض الحروف الزائدة والكلمات المشتبكة فى نسخ القرآن مخطوطة ومطبوعة حسب قواعد الإملاء العتيقة التى احتفظ بها فى الكتابة القرآنية لشهادة بليغة على تلك الأمانة التقية التى انتقل بها ذلك الأثر الخالد من جيل إلى جيل حتى انتهى إلينا .

الباب الثالث :

كيف بلغت رسالة الإسلام للعالم :

كل الناس تعرف فى الجملة ما ذا تكون رسالة القرآن التى تسمى الإسلام ، ولكنهم يعرفونها معرفة كثيراً ما تغلو فى الاعتماد على حد ظاهرى .

أنها ذلك الإصلاح الدينى الاجتماعى الخلق الذى ما أن ولد على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر فى بداية القرن السابع من التاريخ الميلادى حتى مضى قدماً منتصراً نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وها هو ذا فى زمن جد قصير نسبياً ، يسود على نصف العالم المعروف حينذاك . حدث لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، وهو ما ينفك يسترعى انتباه الإنسانية ويستثير استطلاع مؤرخى السنن والأديان ، وعبثاً يحاولون أن يجدوا له نظيراً فى التاريخ القديم ، موازنين بينه وبين فتح الاسكندر الأكبر أحيانا ، الذى كان انتشاره سريعا حقا ، ولكنه لم يحدث أى تغيير ، لا فى تفكير الأمم ولا فى عاداتها ، ولأول نسمة من الإسلام ولى ولم يبق وراءه

(١) على أنه لم يقم بهذا العمل من تلقاء نفسه دون مشورة الأمة : فى خطاب انتهت دراسة أصحاب المصاحف إلى الاعتراف بصحته ، حيث يدافع خلف الخليفة عن هوى سلفه بعده ، يصرح على أن هذا الإجراء العنيف إنما اتخذ باتفاق جميع الصحابة الحاضرين ، ويضيف الإمام : لو أن عثمان لم يتمه لأتممته أنا (داود ص ١٢ و ٢٢) .

أى أثر، وأننا لن نذهب إلى حد القول بأن عمل الاسكندر لم يكن إلا لغوا مطلقا، فلقد رصع فى الأفق طريق الشرق بسلسلة من المدن الجميلة التى ازدهرت بها الحياة الاقتصادية، هذا صحيح وليس أقل منه صحة أن هذا العمل لم يتعد حدود المدن، فإن كتلة الشعوب أو الفلاحين الذين قيل بحق أن من لم يفتح قلوبهم لم يفتح شيئا، قد احتفظوا بطوابعهم الخاصة: اللغة والعادات والنظام السياسى والاقتصادى كما هى لم تمس، بل كان الأمر كذلك فى المدن نفسها، فإن «الهلينية» ممثلة فى الجهاز الإدارى لم تتعمق إلا عند قلة من الطبقة المتوسطة «البرجوازية» أفنحن فى حاجة إلى القول بأن المستعمرين اليونانيين لم يلبثوا أن أعطوا بأيديهم واستسلموا لفاتحين جدد، فما لبثت تلك المدن أن أفلست تدريجيا تحت الامبراطورية الرومانية .. وكيما تكون لك فكرة عن هذا الطابع العرضى لتلك العمارة غير المتناسقة يكفى أن تذكر بعض التواريخ المعروفة، فمعلوم أنه بعد نحو عشرين سنة من موت الاسكندر تقطعت امبراطوريته إلى ثلاث ممالك سنة ٣٠١ قبل الميلاد، ثم تمت على التدريج عملية تقطيع يمكن رسمها هكذا: بعد خمسين سنة أخذ البرثيون آسيا العليا (سنة ٢٥٠) وبعد ستين سنة تسقط آسيا الصغرى تحت السيطرة الرومانية (سنة ١٩٠) ثم نحو خمسين سنة وترى فلسطين تكون دولة يهودية مستقلة (١٤٤ — ٦٤) وفى نحو التاريخ نفسه تجد الدولة الأم نفسها (اليونان سنة ١٦٤، ومقدونيا سنة ١٤٢) تنحدر إقليما رومانيا، وإذا بقيت الملكية المصرية أطول مدة بعيدا فلم تقع تحت نير رومية إلا سنة ٣١، فإن انهيارها السياسى كان قد بدأ بعد الثلاثة البطالسة الأول سنة ٢٢١، ولكن المشكلة الحقيقية ليست هنا، فنحن إذا نحينا جانبا المظهر المادى للمدنية، ودخلنا فى حيز الفكر، فإن مما لا شك فيه أن الفاتح المقدونى بدل أن ينقل معه التصورات اليونانية تبنى فى بساطة تامة الأفكار الشائعة فى البلاد المفتوحة وتسلل إلى آلهتها .. وورثته مثله لم يتطوروا فى هذه السبيل، وبصفة عامة فى العهدين اليونانى والرومانى نجد الأفكار الفلسفية والدينية ـ وكانت جد مزدهرة حينذاك فى الشرق وبخاصة فى الاسكندرية ـ ليست صادرات هلينية، بل نجدها فى جوهرها دعوات شرقية استخدمت اللغة اليونانية لتنقل إلى أوربا باسم الأفلاطونية الجديدة

والمسيحية ، بحيث يكون من حقنا هنا أن نقول أن الشرق هو الذى فتح فاتحيه . . ثم جاء الإسلام أخير فتغير ما بين يوم وليلة ، لا الواجهة السياسية والاقتصادية فى كبريات المدن هذه المرة ، بل الروح الإنسانى فى أعمق أعماقه عند الشعوب كلها ، فاللغة والفكر والقانون والأمانى والعرف وتصور الخلق والخالق كل أولئك تحول دفعة واحدة .

وهذا الفتح الروحى لم يستول على النفوس التى خامرها بطريقة صالحة لدوام البقاء فحسب ، ولكنه يجنح إلى الكسب الجديد حيثما ترك يعرض نفسه فى أى مكان ببساطته وصفائه الأولين ، وتلك مشاهدة لا يساوقها إلا نشوزا ذلك الرأى الشائع من أن الإسلام لم يعم إلا بحد السلاح .

أفليس نفوذه الفعال فى أيامنا هذه دليلا يقع تحت الحس على أنه يعمل بقوة باطنية وصلة خاصة بالطبيعة البشرية وحقائق الأشياء ؟ نعم إن القوى المناوئة فى زمن مضى بما أفعمت من كره . وما عمدت إليه من وسائل العنف فى اضطهاد الدعوة الناشئة وإرهاقها قد اضطرتها إلى أن تقاوم لتضع حداً لذلك الظلم الذى كان قد استمر زمناً جد كاف ، وما أن أعلنت المقاومة حتى قامت القوى المعادية من كل جانب تأتلف ضد هـذا النظام الجديد الذى يريد أن يقوم مقامها . . وتتوالى الضربات إثر الضربات ، ويكون لزاماً أن ينقضى زمان قبل أن يستقر السلام . . وإذا نظرنا فى الأمور كما هى فلن يسمح لنا شىء أن نرى فى تلك المأساة العامل الجوهرى أو العمدى فى انتشار رسالة الإسلام ، فإن السنين العشر الأولى للدعوة المحمدية ترينا أنه على الرغم من كل العقبات كان مجرد عرض الدعوة يكسب مؤمنين جدداً كل يوم ، كما يشهدنا كذلك بأية شجاعة وعظمة احتمل الرسول وأتباعه لا سخرية مواطنيهم وإهاناتهم فحسب ، بل العزل والمنع من أى اتصال بالشعب ، وأحياناً التعذيب والمثلات فى أبشع صورها (١٦ - ١٠٦ و ٢٩ - ١٠) مما اضطر كثيراً من المسلمين الأولين - ومنهم بعض الأشراف كعثمان ، وبنت أبى سفيان أم حبيبة إلى أن يبحثوا عن ملجأ (١٦ - ١١٠) عند ملك الحبشة ، ولكن مضرب المثل العجيب فى ذلك العهد ، والذى يدل على الأمر الإعجازى إلى أبعد حد لتلك

الدعوة السلمية إنما هو أهل يثرب التى سميت بعد المدينة .. فقبل أن يروا وجه الرسول أو يسمعوا صوته بزمن طويل ، بل لمجرد سماع الدعوة القرآنية عن طريق حجاجهم استقبلها عرب المدينة بما شاء الله من حفاوة ، حتى لم يبق أسرة ليس فيها كثير من المؤمنين ، أكثر من هذا فإن العداوة المضطرمة بينهم منذ ربع قرن(١) خمدت فجأة كأن ريحاً إلهية أتت عليها (٨ - ٦٣) فانقلبوا من أعداء ألداء إلى أخوة أشقاء (٣ - ١٠٣) وفى نفس الوقت فإن النظم الإسلامية التى ما كان يمكن أن تزاول علانية فى مكة بدأت تباشر جماعة وفى وضح النهار (وكذلك أقام أبو إمامة صلاة الجمعة قبل الهجرة بسنة) فى هذه المدينة الحفية المضيافة ، وعما قريب سيستقبل هناك المؤمنون كلهم تقريبا بعد أن تركوا بيوتهم وأموالهم (٥٩ - ٨) واضطهدوا كثيراً أو قليلا بمكة .

وحتى الآن كان كل شىء يمر فى سلام ووقار من ناحية المسلمين فى الأقل ، فلا شىء يدل على أن القوم سيحتكمون إلى القوة ، وبعد أن اطمأن الرسول على مصير أصحابه ووصولهم سالمين ، وعلى الرغم من الخطر الذى يتهدد شخصه لم يتعجل اللحاق بهم ، فلم يكن يريد أن يغادر مركز أداء واجبه دون إذن صريح من الوحى ، معتقدا أنه يجب عليه أن يمد بقاءه ، وأن يوالى دعوته فى البلد الذى ولد فيه حيث بقى وحده مع صديقين : أبى بكر وعلى .

وفى ليلة المؤامرة المدبرة على حياته تلقى وحياً ، الأمر الإلهى بالرحلة .. بل أنه فى الساعة التى بدأ فيها تنفيذ المؤامرة الدنيئة غادر المدينة سراً بصحبة أبى بكر أحد الصحابيين ، ووكل إلى الآخر مهمة تعفية آثاره .. وبعد النجاة الإعجازية أما كان واجبه أن يفكر فى الانتقام من أعدائه أولئك الذين أرادوا قتله ؟ كلا ، وإذا تتبعنا مراحل نشاطه فى السنة الأولى من الهجرة ، وجزء كبير من الثانية فإننا نجد جهوده - على العكس - متوفرة على الأعمال القدسية والبنائية : بناء المسجد ، تنظيم أحكام الصوم ، وضع نظام الآذان للصلاة ، التنظيم الداخلى السلمى للمجتمع ؛ فكل شىء حتى هذه اللحظة كان يدل على أن المسلمين سيولون ظهورهم ، حتى فى

(١) لامانس : عهد الإسلام قبيل الهجرة ص ٢٦٥ .

الصلاة ، نحو وطنهم القديم ، فى ذلك الحين فى نحو منتصف السنة الثانية بدأوا يتعرضون للقوافل التجارية لمضطهديهم ليذهبوا للقائهم فيما بعد .

من أين هذا التحول وهذا التغير المباغت الوضع ؟ إنه ليستحيل علينا ـ وآراء المستشرقين غير المتحيزة متفقة فى هذا الصدد ـ أن ننسب ذلك إلى الحالة النفسية الشخصية للرسول ، فإن الأعمال الحربية ليست فى الواقع من طبعه ولا ذوقه ، بل على النقيض ، فإن حلمه وعفوه عن أعدائه كانا فى الغالب مدعاة عتب القرآن عليه (٨ - ٦٥ و ٩ - ٨٠ / ١١٣) ولقد حفظت الآثار عنه مجموعة كبيرة من مآثر العفو عن جرائم ارتكبت ضد شخصه وأشخاص أتباعه [١] ، يريد بعضهم أن يعلل هذا الاتجاه الجديد بضغط شعبه عليه ، فالروح الحربى خصيصته الجوهرية . . ولكن العلماء الذين تعمقوا فى دراسة الغريزة العربية لايستطيعون أن يوافقوا على هذا الفرض ، فهم قد بينوا على العكس إلى أى حد يمقت العرب ، حتى أعراب البادية ، إهراق الدم [٢] ، إنهم يؤكدون لنا أن البدو لا يسعون إلى الحرب ، بيد أنها حين تفرض نفسها يقبلونها ولا يقبلون المذلة والعار ، حتى فى الإغارة التى كانوا يشنونها بعضهم على بعض كانت القبائل البدوية تعنى إلى أبعد حد بتجنب الأحداث الدامية ، إذن لا فى نفسية الشعب ولا فى نفسية رئيسه يمكن أن نجد تعليلا مرضيا لهذا التحول الجديد ، فلا بد أن يكون قد حدث شىء فى وقت ما ترتب عليه رد الفعل هذا . . والواقع أن القرآن يعرض علينا مشاهد تبلغ الغاية فى الإثارة ، لقد رأينا فى الهجرة كيف أن الرسول يتأخر بعد إخراج أصحابه كيلا يرحل إلا فى آخر لحظة ، ومن هنا يمكن أن نستوثق أنه لم يترك وراءه شيئاً يهتم له ، كذلك يمكن أن يستيئس

(١) مثلا عفوه عن المبعوث القرشى الذى جاء ليغتاله بعد بدر ، والمرأة اليهودية التى حاولت سمه فى خيبر ، وذلك الذى تهجم فى وحشية على ابنته الكبرى زينب أثناء الهجرة وهى حامل فأسقطت ، ومعلوم كيف كان حلمه على أصحاب الإفك الذين رموا زوجه البراء عائشة . أما سلوكه السلمى الكريم فى أثناء فتح مكة وبعد الفتح فما يثير العجب حقاً . (انظر ج . ب سانت هيلير . محمد والقرآن ص ١٢٥ ـ ١٣٠) .

(٢) لامانس : مهد الإسلام ص ٢٤٧ .

فلا أمل فى إيمان جديد بتلك المدينة المعاندة ، ولكن الواقع أن الأمر لم يكن كذلك فالقرآن يسمعنا تلك الصيحات المتأزمة المنبعثة من المسلمين الذين لم يعد لهم سند. رجالا ونساء وأطفالا بمكة يتعذبون ، إنهم آمنوا فهم يستغيثون الله من ظلم القوم الكافرين (٤ - ٧٥) ذلك أنه على عدم تجدد الدعوة ما تنفك البذور القديمة - موعظة وقدوة - مخصبة ، وبقدر ما يخفق الإيمان قويا يشتد العنف والتعذيب لخنقه فى غير تأثم ، وتسقط الضحايا دون دفاع .

ما هذا ؟ . . ألآن المهاجرين والذين آووهم يتمتعون الآن فى ملجأ أمين بحرية كاملة فى الإيمان وإقامة الشعائر يكون من حقهم أن يتقوقعوا فى أنانيتهم ، وأن يظلوا غير مكترثين لمصير إخوانهم ، أيمكن - عقلا ودون تحيز - أن يحال بين الحقيقة والفضيلة وبين حقهما فى العون ، وأن تترك « الاستبدادية » تتسلح ضدهما ؟ على كل حال هذا العون المادى مطلوب عدلا لم يباشره المسلمون بسهولة فى الأقل بالصورة الحربية ، هنا أيضا يكفى أن يرجع إلى مصدر وثائقنا الثمين ، ذلك المصدر الذى ترتفع الآن صحته وأمانته التاريخية عن مستوى أى شك عند أى عالم كان ، أعنى القرآن لنتبين التردد والتراجع اللذين أبداهما الأحرار أمام المشروع العسكرى الذى كانت غايته تحرير الأسرى ، لا لويلات الحرب (٢ - ١٦) وغريزة حب البقاء فحسب (٤ - ٧٧ / ٧٨) بل لظروف أخرى جد عسيرة كانت تجعل النضال فيما ترى أعينهم مستحيلا تقريبا . . أفتندفع على غير استعداد لمواجهة عدو هو فى طريقه إلينا ، وهو أكثر منا عددا وعدة (٣ - ١٣) أو لا يحسن أن نكتفى ببعض الإجراءات الانتقامية [1] غير المباشرة بحيث تشعر قريشا مقدرتنا على الرد ، ونحملهم على أن يحسنوا معاملة إخواننا . . وأنه لأولى أن نعترض عير التجارة القرشية بدل الصدام بجيشها المحارب (٨ - ٧) كذلك كانوا يتدبرون فى

---

(١) معلوم أن المسلمين المهاجرين تركوا أملاكهم وأموالهم بين أيدى مضطهديهم ، (٢٢ - ٤٠) أفلا يكون لهم حق التعويض الجزئى من تجارة هؤلاء ؟ .

فهذا ما يسميه « سانكلير » بشات النهب (مصادر القرآن ص ٢٤٦) .

المعسكر الإسلامى ، لكن الواجب يلق أوامره ، وتدق ساعة التضحية الكبرى ، فلقد أراد الله أن يحسم المعركة بين الحق والباطل (الآيات السابقة نفسها) .

فليس على المسلم إذن إلا أن يسلم لأمر الله حتى « يحيي من حى عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة » (السورة السابقة الذكر ٤٢) أولئك من أجل مثاليتهم وهؤلاء من أجل أصنامهم (٤ - ٧٦) تلك كانت الظروف التى انطلقت منها شرارة الصراع الأول بحد السلاح ، فطالما كانت الاضطهادات شخصية حين كان المسلمون بمكة كان لزاماً عليهم ألا يردوا أى رد عنيف ، وأن يحتملوا جراحهم فى شجاعة (٤ - ٧٧) أما الآن وقد أخذ عنف الوثنيين يأخذ صفة العموم ، وينقلب صراعا حربياً حاسماً لا لبس فيه (٢ - ٢١٧) فإن المؤمنين أخيراً بعد عشر سنين قد أذن لهم (٢٢ - ٣٩) ثم فرض[1] عليهم (٢ - ٢١٦) أن يؤازروا إخوانهم الذين ليس لهم حماية (٤ - ٧٥) ؟

---

(١) ثم تحول هـذا الإذن إلى إلزام فى ظروف سيئة جدا ، فلسنا ندرى كيف يؤكد سان كلير أن القانون القرآنى عـدل بنسبة نجاح جيوش محمد : ص ٢٧٩ ، ثم يقع فى أخطاء أخرى فى الباب نفسه : أولا حين يعكس معنى الآية (٢١٧ ـ ٢) التى تمنع كل اعتـداء أثناء الأشهر الحرم ص ٢٧٦ ، ثانياً : يعد وسائل الـكبت التى اتخذت ضد الارهابيين (سورة ٥ آية ٣٣) شكلا جديداً للحرب معبراً عن مرحلة ثالثة فى هذا التطور ص ٢٧٧ .